﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: 108]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيانِ حالِ أهلِ الغيِّ إلى بيانِ حالِ أهلِ الرُّشدِ

لمّا ذَكَرَ في الآيات السّابقةِ حالَ أكثرِ النّاس من إعراضِهم وجحودِهم وشركِهم باللّه تعالى، شَرَعَ في هذه الآية مُرشِدًا رسولَ اللّه ﷺ أن يكونَ مُقبِلًا على السّبيل في مُقابِلِ مَن يُعرِضُ عنها، داعيًا إلى اللّه تعالى في مُقابلِ مَن يدعو إلى الأوثان، على بصيرةٍ في مُقابلِ مَن هو في ظلمةٍ، مُؤيَّدًا بالمؤمنين في مُقابلِ مَن هو مُؤيَّدٌ بأهل الباطلِ، ثابتًا على التّوحيد في مُقابلِ مَن يُشرِكُ باللّه تعالى، فهي مُناسبةٌ انتقاليّةٌ بين الحقِّ والباطلِ، وبين التَّوحيدِ والشّركِ، تَظهَرُ فيها المُتقابِلاتُ بأسلوبٍ أخّاذٍ، وانتقالٍ بديعٍ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبِيلِيٓ﴾: جَذرُ الكلمة هو (سبل)؛ والسَّبيلُ: الطَّريقُ، وسبيلُ اللّه طريقُ الهدى الّذي دعا إليه، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾؛ أي: سبيلُ الإيمانِ، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ﴾ [إبراهيم: 12]؛ أي: هدانا الشّرائعَ الّتي أنزلَها اللّه إلينا مُضمَّنةً في الرِّسالات السّماويّةِ. وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 195]؛ أي: في الجهادِ وكلِّ ما أمرَ اللّه به منَ الخير فهو من سبيل اللّه؛ أي: مِنَ الطّرقِ إلى اللّه. واستُعمِلَ السَّبيلُ في الجهاد أكثرَ، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ﴾ [الأعراف: 146]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ﴾ [التّوبة: 60][1].

(1) ابن سيده، المُحكم: (سبل).

2) ﴿بَصِيرَةٍ﴾: جذرُ الكلمة هو (بصر)؛ البَصَرُ: العَينُ، والبَصَرُ: نَفاذٌ في القلب. وأبصَرتُ الشَّيءَ وتَبَصَّرتُ به، واستَبصرَ في أمرِه ودينِه، إذا كانَ ذا بصيرةٍ. والبصيرةُ اسمٌ لِما اعتُقِدَ في القلب منَ الدّين وحَقيق الأمرِ. ويُقالُ للفِراسةِ الصّادقةِ: فِراسةٌ ذاتُ بَصيرةٍ. والبَصيرةُ: العِبرةُ، يُقالُ: أما لكَ بصيرةٌ في هذا؟ أي: عِبرةٌ تَعتَبرُ بها[1]. ومعنى البصيرةِ في الآية؛ أي: على علمٍ وهُدًى ودرايةٍ بالشّرعِ بما يرضاه اللّه منَ النّاس، وهي مَضمونُ الوحيِ إلى رسول اللّه ﷺ.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

سبيلُ الحقِّ أبلجُ واضـــحٌ، وهـو سبيلُ الـرّسـولِ والمـؤمـنـين إلى يوم الدّين

تُرشِدُ الآيةُ رسولَ اللّه ﷺ إلى أنْ يَلتزمَ سبيلَ الحقِّ والتّوحيدِ والهدى، وخطابُه هو خطابٌ لأمَّتِه؛ لأنّه هو القدوةُ في هذا المَسلكِ، الّذي هو الدّعوةُ إلى اللّه، وإلى دين اللّه، وإلى شرع اللّه، وإلى التّوحيدِ، وهو مَسلكُ جميع المُؤمنينَ المُتّبِعينَ للرّسول ﷺ. وتكونُ الدّعوةُ إلى دين اللّه على بصيرةٍ؛ أي: على علمٍ وهدًى ومعرفةٍ بالشّرع وبالرّسالة، لا على جهلٍ وتقليدٍ. ثمّ خُتِمَتِ الآيةُ بتنزيه اللّه تعالى عنِ النّقائص، وإثباتِ الكمالاتِ له بإفرادِهِ بالعبادةِ الحقَّةِ الّتي لا تكونُ لِمَن سواه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

علَّةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

خـيرُ الـبَـدءِ ما كـان أمـرًا برُشْدٍ ونفيًا لضلالٍ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾؛ لأنَّه استئنافٌ ابتدائيٌّ مُعترِضٌ بين الجملِ المُتعاطِفةِ؛ للانتقال منَ الاعتبار بنزولِ هذه القصَّةِ للنّبيِّ ﷺ الأُمّي، دليلًا على صدق نبوَّته ﷺ وصدقِه فيما جاء به منَ التّوحيد؛ إلى الاعتبارِ بجميع ما جاءَ به من هذه الشَّريعةِ عنِ

(1) الخليل، العين: (بصر).

اللّه تعالى[1]. وسببُ الفصلِ بين الجُملتين؛ هو حالةُ كمال الانقطاعِ بينَهما، فالجملةُ السّابقةُ خبريّةٌ، وهذه إنشائيّةٌ، ولا ارتباطَ يُذكَرُ بين معنى الجُملتين.

سِرُّ استعمالِ اسمِ الإشارةِ:

تَنزيلُ الشَّريعةِ مَنزلةَ المُشاهَدِ المحسوسِ كنايةٌ عنِ الوضوحِ

استُعملَ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ اسمُ الإشارة القريبِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾؛ إشارةً إلى السّبيل الّذي أراد به التّوحيدَ والشَّريعةَ، أو أن تكونَ الدّعوةُ إلى اللّه على ما دعا إليه كتابُ اللّه وسُنةُ نبيّه ﷺ[2]، فنزَّلَ المعقولَ مَنزلةَ المحسوسِ؛ لِبُلوغِه منَ الوضوح للعقول حدًّا لا يخفى فيه إلّا على من لا يُعَدُّ مُدْرِكًا[3]. واستعمالُ اسم الإشارةِ للقريبِ؛ لبيانِ قُربِ المُشارِ إليه، كنايةً عنِ الوضوح.

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ السّبيلِ:

الشَّريعةُ واضحةٌ مُستقيمةٌ كوضوحِ السَّبيلِ واستقامتِهِ

عُبِّرَ عنِ التّوحيد والشّريعةِ في قولِه تعالى: ﴿سَبِيلِىٓ﴾ "بالسَّبيل على وجه الاستعارةِ لإبلاغها إلى المطلوب؛ وهو الفوزُ الخالدُ، كإبلاغ الطّريقِ إلى المكانِ المقصودِ للسّائرِ، وهي استعارةٌ مُتكَرِّرةٌ في القرآن وفي كلامِ العربِ"[4]. فالشَّريعةُ كالسَّبيل، ووجهُ الشّبهِ بينَهما هو الإبلاغُ إلى المقصود، فحَذفَ المشبّهَ وأبقى المشبّهَ به؛ فهي استعارةٌ تصريحيّةٌ أصليّةٌ، وفيها تجسيدُ التَّحرُّكِ والمُضيِّ المُستَنيرِ في هذه السُّبل الواضحةِ الّتي هي كالصّراط المستقيمِ الّذي يَمنحُ سالكَهُ المِنَحَ الكثيرةَ والجوائزَ العظيمةَ.

دَلالةُ إضافةِ السَّبيلِ إلى ضميرِ المُتكلِّم:

سبيلُ الثّقاتِ تَكسوها الطُّمأنينةُ، وتحفُّها السَّكينةُ

أُضيفَ لفظُ السَّبيل في قولِه تعالى: ﴿سَبِيلِىٓ﴾ إلى ضمير المُتكلِّم، وهو رسولُ اللّه ﷺ؛ تعريفًا بعظيم شأنِ هذه السّبيلِ؛ فهي "قريبةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/64.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/105.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/64.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/64.

المَأخَذِ، جليَّةُ الأمر، جليّةُ الشَّأن، واسعةٌ واضحةٌ، فكأنَّه قيلَ: ما هي؟ فقال: ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾ كلَّ مَن يَصِحُّ دعاؤُه إلى اللّه[1]. وفي هذه الإضافة دعوةٌ إلى الحرصِ عليها، والأخذِ بها، ومراقبةِ آثار الرّسولِ فيها، والاقتداءِ بها، فهي سبيلُ رسول اللّه ﷺ لا سبيلَ غيرِه، مع ما فيها من توريث الطُّمأنينةِ؛ فإنَّ مَن يسلكُ سبيلًا سلكَها الثّقاتُ فإنَّه يكونُ في تمامِ السّكينة والطُّمأنينةِ.

نُكتةُ تأنيث السَّبيلِ:

السَّبيلُ هي الدّعوةُ على البصيرةِ الواضحةِ المُنكشِفةِ

السَّبيلُ والطَّريقُ: يُذكَّران ويُؤنَّثان، وقد أنّثَها في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾؛ لأنّه أراد بها (الدّعوة)؛ وهي الّتي تؤدّي إلى الغاية المَرجوّةِ منَ السَّير في هذه السّبيلِ؛ إذ فَسَّرَها بقولِه: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، أي: أدعو إلى دينِه مع حجّةٍ واضحةٍ غيرِ عمياءَ[2]، فجاء التَّأنيثُ مُنسجِمًا مع الدَّعوةِ والبصيرةِ.

بَلاغةُ التَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ:

الإشارةُ إلى السّبيلِ هي إشارةٌ إلى وظيفةِ التّبليغِ والدّعوةِ

قولُهُ تعالى: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ بيانٌ لمعنى السّبيلِ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾؛ فكانتِ الجملةُ مُبيِّنةً لهذه السّبيل، مُفصِّلةً لحال مَن يسلكُها[3]. ولهذا التَّفصيل نكتةٌ؛ وهي بيانُ الوظيفةِ الّتي كُلِّفَها ﷺ، فالإشارةُ إلى السّبيل في الحقيقةِ هي إشارةٌ إلى وظيفة التّبليغِ والدّعوةِ إلى اللّه تعالى على بصيرةٍ وبيّنةٍ. فتركَ عطفَ هذه الجملةِ عن سابقتِها؛ لأنّها متّصلةٌ بها كمالَ اتّصالٍ لكونها مبيّنةً ومُفسّرةً لها.

نكتةُ حذف المفعول:

دعوةُ الرّسولِ عامّةٌ لا تخصُّ أحدًا بعينِه

حُذِفَ مفعولُ ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾؛ وتقديره: أدعو مَن تَصِحُّ دعوتُه، أو أدعو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/105.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/479.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/345.

النّاسَ؛ لبيان شمولِ الدَّعوةِ، وأنَّها لجميع النّاسِ، فالدّعوةُ مُطلَقةٌ غيرُ مُقيَّدةٍ، ورحمتُها في إطلاقها، فالحذفُ للتّعميم.

دَلالةُ استعمالِ حرفِ ﴿إِلَىٰ﴾:

غـايـةُ الـدَّعـوةِ بلوغُ رضوانِ الله تعالى

دلَّ حرفُ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ على انتهاءِ الغاية، مع الإشارة إلى ابتدائِها؛ أي: أدعو ابتداءً النّاسَ في هذه السَّبيل إلى الله تعالى، فتكونُ غايةُ الغايات هي الوصولَ إلى رضا الله تعالى، وتطبيقَ شريعتِه، كما أمرَ ﷺ.

نُكتةُ ذكرِ لفْظِ الجلالةِ:

توريثُ المُخاطَبِ الطُّمأنينةَ، وإكسابُ الخطابِ ثوبَ الجمالِ

في ذكر لفظ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ إشارةٌ إلى عظيم هذه الدّعوةِ، وأنَّها دعوةٌ مُرتبِطةٌ باللّه تعالى، فلم يقُلْ: أدعو إلى الدّين، أوِ الإسلام، أوِ الحقِّ، بل أتى بغايةِ الغاياتِ، ومُنتهى التّطلُّعاتِ؛ لتوريث الطُّمأنينةِ، وإكسابِ الخطابِ ثوبَ الجلالِ والبهاءِ والجمالِ والسَّناءِ.

بَلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

مَـن كـانَ على بـصـيرةٍ فـارقَ الباطلَ وجانبَ الجهلَ

استُعمِلَ حرفُ الاستعلاءِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾؛ للاستعلاء المَجازيِّ المُرادِ به التَّمكُّنُ، وهو مثلُ قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5][1]؛ أي: حُجّةٍ واضحةٍ بالأدلّةِ القاطعةِ، وتَركِ التّقليدِ الدّالِّ على الجمود؛ لأنّ البصيرةَ تمييزٌ للمَعرفة الّتي يُفرَّقُ بها بين الحقِّ والباطل دينًا ودُنيا، فيصيرُ كأنّه يُبصرُ المعنى بالعين[2].

نُكتةُ تَنكيرِ ﴿بَصِيرَةٍ﴾:

أفادَ تنكيرُها هنا معنَى التّفخيمِ والتّعظيمِ لشأنِ هذه البصيرةِ.

بَلاغةُ المجازِ في لفظ البصيرةِ:

إذا سطعتِ الحُجَّةُ أُبْصِرتِ المحجّةُ

معنى البصيرةِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾؛ الحجّةُ الواضحةُ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/64.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/105.

والبرهانُ القاطِعُ؛ والمعنى: أدعو إلى اللّه على بصيرةٍ مُتمَكِّنًا منها. وفي استعمال ﴿بَصِيرَةٍ﴾ مَجازٌ؛ إذِ البصيرةُ وصفٌ لصاحب الحُجّةِ؛ لأنَّه بها صار بَصيرًا بالحقيقة، والعلاقةُ المُسبَّبيّةُ. ومثلُهُ وصْفُ الآيةِ بمُبصِرَةٍ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النّمل: 13]. وبعكسِهِ يوصَفُ الخَفاءُ بالعَمى كقوله: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [هود: 28][1].

نُكتةُ ذكْرِ ضميرِ الفصْلِ ﴿أَنَا۠﴾:

ضابطُ البَصيرةِ أن تكونَ موافِقةً لسنَّةِ رسولِ الله ﷺ

جاءَ ضميرُ الفصل ﴿أَنَا۠﴾ بعد جملةِ ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ توكيدًا لفاعل ﴿أَدْعُوٓا۟﴾، فقد أُتي به لتحسينِ العطفِ، بقوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، وهو تحسينٌ واجِبٌ في اللّغة[2]؛ أي: أدعو إلى توحيد اللّه بهذه الملَّةِ، ويدعو إليه مَنِ اتّبعَني، وآمنَ بي، وصَدَّقَني. ويمكنُ أن يكونَ قد تمَّ الكلامُ عند قولِه تعالى: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾، ثمّ استأنفَ ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾؛ فيكون المعنى: أنا على بصيرةٍ وحُجّةٍ واضحةٍ، ومَنِ اتَّبعَني أيضًا على بصيرةٍ.

فائِدةُ التّعبيرِ بـ(مَنْ) دونَ الّذي:

أتباعُ النَّبيِّ يلقّبُهُمُ الزَّمانُ كلُّهُ

﴿وَمَنِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى الّذي، وعبّرَ به دونَ الّذي للنَّصِّ على العُموم؛ فيدخلُ كلُّ المُؤمنينَ المُتّبِعينَ في الزّمان كلِّه، ولو أتى بالّذي فقالَ: (والّذي اتّبعني)؛ لفُهِمَ أنَّ المرادَ واحدٌ، وفي الآية دلالةٌ على أنّ أصحابَ النَّبيِّ ﷺ والمُؤمنينَ الّذين آمنوا به مَأمورونَ بأنْ يَدعوا إلى الإيمان بما يَستطيعونَ، بوسائلِ بثِّ القرآنِ، وأركانِ الإسلام، والجهادِ في سبيل اللّه. فهذه هي سبيلُ البصيرةِ الّتي ذكرَتها الآيةُ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/64.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/64.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/64 - 65.

نُكتةُ إفرادِ الفاعل:

في قولِه تعالى: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ أفرد الفاعلَ ﴿ٱتَّبَعَنِى﴾ دونَ أن يقولَ: (اتّبعوني)، وذلك لملاحظة تفرُّدِ كلِّ مُتَّبِعٍ للحقِّ في قضيّة الدّعوةِ، وأنّ كلَّ واحدٍ مَسؤولٌ عن نفسِه، وعن إصلاحِ عملِه، وهو مُكلَّفٌ بما أوتي من قدراتٍ وإمكاناتٍ أن يبذلَ ما يستطيعُ من جهدٍ وعملٍ وقولٍ في اتّباعِ هذه السّبيلِ داعيًا النّاسَ إليها، ناشطًا في الدّعوة إليها، فيدخلُ في مضمونِها كلُّ أحدٍ من شأنِه أن يكونَ مُتَّبِعًا بالاعتبارِ الانفراديِّ المُتجرِّدِ في متابعة النَّبيِّ ﷺ، دونَ مُتابعةِ أربابِ الفرقِ والنِّحلِ والملِ والمَذاهِبِ الّتي مِن شأنِها لَيُّ أعناقِ النّصوص، وطيُّ دلالاتِ الألفاظ.

الاتِّباعُ المُتجرِّدُ للحقِّ مزيّةُ أهلِ الحقِّ

نُكتةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿ٱتَّبَعَنِى﴾ دون (تبعني):

الفعلُ (اتّبع) على وزن (افْتَعَلَ)، وهي صيغةُ الفعل الثُّلاثيِّ المَزيدِ بحرفين، ويفيدُ الفعلُ بهذه الصّيغةِ مَعنيين: الأوَّلُ: المُطاوعَةُ، مثل: أشرَكتُه فاشتَرَكَ. والمعنى الثّاني: المُشاركةُ، مثل: اجتَمَعَ المُصلِحون. والقاعدةُ الأغلبيّةُ: (الزّيادةُ في المَبنَى تدلُّ على الزّيادةِ في المعنى)، تُعينُ على فَهمِ أنَّ الفعلَ ﴿ٱتَّبَعَنِى﴾ فيه زيادةُ معنًى، مِن بذلِ جهدٍ في التَّحقُّقِ من سبيلِ الاستقامةِ، والثّباتِ عليها، وليس في الفعل (تَبِعَني) تلك الزّيادةُ في المعنى الذي يفيد التَّكلُّف والاجتهادَ، ولذلك جاءَ ﴿ٱتَّبَعَنِى﴾ في سياق الدّعوةِ والثّباتِ، وأمّا (تَبِعَني) في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: 36]، فجاء في سياق التّوحيدِ عمومًا؛ أي: تَرَكَ الشِّركَ، بخلاف آية سورةِ يوسفَ، ففيها حثٌّ وحضٌّ على التّوحيد والدَّعوة.

الاتِّباعُ في التّوحيدِ والدّعوةِ، وهو أشدُّ وألزمُ مِنَ التّبعِ في التّوحيدِ

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾:

عُطِفَت جملةُ ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ على جملة ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي:

أدعو إلى الله وأُنزِّهُهُ[1]، فإنَّ ذكرَ التَّنزيهِ بعدَ الدّعوة فيه تنبيهٌ على أنَّ كلَّ دعوةٍ إليه سبحانَه يجبُ أن تقترنَ بتنزيهِهِ سبحانَه عن كلِّ نقصٍ؛ فَأُثْبِتُ له من صفاتِ الكمالِ ما يَليقُ بجلالِهِ، وأُنَزِّهُهُ عمّا هو مُتعالٍ عنهُ. وفي تخصيص الله بذلك، عَقِبَ ما أثبَتَ الرّسولُ لنفسِه ولأتباعِهِ مُضمّنًا في لُجوئِه إلى سبيل الله تعالى، والرّكونِ إليها؛ تلويحٌ بنسبة النَّقصِ إليهم تَواضُعًا، واعتِذارًا عمّا يَلحقُهُم منَ الوَهَنِ، وطلبًا لِلعَفوِ عمّا يكونُ فيه من تقصيرٍ[2].

تَنزيهُ الله تعالى شـرطٌ في قَـبولِ الدَّعوةِ وركنٌ في نجاحِها

بَلاغةُ المجيءِ بالمصدرِ (سُبحان) بدلًا منَ الفعلِ:

جاءَ التّسبيحُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ مَصدرًا، ولم يأتِ فعلًا؛ وذلك للمبالغةِ والدّلالةِ على الثّبات. والتَّقديرُ: وأُسَبِّحُ اللّه سُبحانًا؛ أي: أدعو النّاسَ إلى توحيدِه وطاعتِه وتنزيهِه عنِ النَّقائصِ الّتي يمارسُها، ويدعو لها المُشركون من عبادة غيرِ الله أو سؤالِه، ودعوةِ أنّ له ولدًا، أو صاحِبةً[3]. والاسمُ أقوَى وأدلُّ على الثّبات منَ الفعل، فدلالةُ الفعل على التَّجدُّدِ والتَّغيُّرِ مع الزّمن على خلاف الاسْم، فالمُؤمِنُ في جميع الأحوال، يُسبِّحُ اللّه، وينزِّهُهُ عنِ الشَّريك أوِ النّقائصِ سبحانَه.

المصادرُ أقوَى في دلالاتِها، وأرسخُ في معانيها

دَلالةُ (ما) النّافيةِ:

(ما) النّافيةُ تنفي الجُملَ الاسميّةَ والفعليّةَ، فإذا دخلَت على الجُمل الاسميّةِ كان نفيُها للحال عندَ الإطلاق، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ نَفَى مُطلقَ الإشراكِ عن نفسِه.

فائدةُ تَقديمِ المُسنَدِ إليه المَنْفيِّ على المُسنَدِ:

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ تقدَّمَ المُسندُ إليه، وهو

لا يكتملُ توحيدُ المـؤمـنِ مـا لـم يـقترنْ بـالتّبرئةِ منَ الشّركِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/65.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/105.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/65.

الضّميرُ المُنفصِلُ المَسبوقُ بالنَّفي على المُسنَد، فأفادَ تخصيصًا؛ إذ نفَى المُتكلِّمُ عن نفسِه أن يكونَ منَ المُشركين، وأثبتَ ذلك لغيرِه. ونكتةُ التَّخصيص بيانُ شيوعِ الشِّركِ في النّاس، وقلَّةِ الموحّدينَ فيهم، ففيه بيانُ واقعِ المُتكلِّم، والتّبرُّؤُ ممّا سواه منَ المُشركين، وهذه فائدةُ التَّخصيص، وهي مُستفادةٌ منَ النّظمِ والسّياقِ.

نُكتةُ اختيارِ مُفردةِ الشّركِ دون الكُفرِ:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ الشّركِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ دونَ الكفرِ، فلم يقُلْ: (منَ الكافرين)؛ لبيانِ أخسِّ أنواعِ الكفرِ وأرْذَلِها، وهي أن يجعلَ العبدُ للّه ندًّا، أمّا الكفرُ فهو عامٌّ يدخلُ فيه الجحدُ والتّكذيبُ وغيرُهما، بالإضافة إلى أنَّ الشِّركَ هو المُنتشِرُ في جزيرة العربِ، والمُشركون يَزعمون انتسابَهُم إلى إبراهيمَ عليه السلام، فكان نفيُ الشِّركِ تبرئةً منَ الواقعِ الباطلِ الّذي نَزَلَ فيه القرآنُ، وهو أرسخُ في التّبرئةِ.

الـشّـركُ أخـصُّ منَ الكفرِ، وهو المُـنـتَـشِـرُ عند نزولِ القرآنِ

معنَى ﴿مِنَ﴾ في: ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

يمكنُ أن تكونَ ﴿مِنَ﴾ هنا ابتدائيّةً على معنى: أن يكون بدءُ أمري منهم، أو تبعيضيّةً على معنى: أن يكون بعضًا منهم.

فائِدةُ الجمْعِ دونَ الإفرادِ:

آثرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الجمعَ دون الإفرادِ، فقال: ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ أي: في عداد مَن يُشرِكُ به شيئًا بوجهٍ منَ الوجوه. وأفادَ التّعبيرُ بالجمع شمولَ أنواعِ الشّركِ، ودرجاتِ المُشركين، ونفَى عن نفسِه أن يكونَ بينَهم أو أن يكونَ راضيًا عنهُم، كلامًا أو سكوتًا، أو أن يُعايشَهم، ويرضَى بأفكارِهم وعقائدِهم، أو أن يتغاضَى عن باطلِهم، فالنّفيُ في أن يكونَ في زمرتِهم لا أن يكونَ مُشركًا، فنبَّه بالأدنى على الأعلى، وهذا هو اللّائقُ بسيّدِ الخلْقِ ﷺ، وهو الأبلغُ بالنّفي.

مَـن كَـثَّرَ سـوادَ المُـشـركـين، أو رَضِي بـهـم، أو اطـمـأنَّ إليهم، فهو منهُم

بَلاغةُ التَّذْييلِ:

السَّيرُ في سبيلِ الدّعوةِ تنزيهٌ للنَّفسِ عن مُجتمَعِ الشِّركِ

وجملة ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ تعمُّ ما تضمَّنَتهُ الجملةُ قبلَها منَ المعنى وتُؤكِّدُه، فتكونُ بمَنزلةِ التّذييلِ لها، فالدّعوةُ إلى اللّه على بصيرةٍ هي دعوةُ التّوحيدِ للّه سبحانَه دون الإشراكِ في عبادته شيئًا، وقولُه: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ مِصداقُ ذلك التّوحيدِ، ثمّ ختمَ بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ مُختصِرًا ما ذَكَرَ سابقًا.

بَراعةُ تَرتيبِ الجُملِ:

التدرُّجُ في بيانِ المعاني وانسجامُها وارتباطُ بعضِها ببعضٍ

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ جاء بديعًا في ترتيبِه، ففي الجملةِ الأولى جاءَ الأمرُ بالانتسابِ للدّعوةِ والتّوحيدِ، وأنّ هذه السَّبيلَ هي دعوةُ النّاسِ إليه سبحانَه على بصيرةٍ وهِدايةٍ، ثمّ يأتي دورُ المُتَّبِعين للرّسول على الهدى، ليشملَ ذلك الأمّةَ المُؤمِنةَ كلَّها حتّى قيامِ السّاعةِ، ثمّ يَنفي عن نفسِه الإشراكَ باللّه تعالى، أو أن يكونَ من جماعة المُشركينَ، فمَنِ اختارَ الإيمانَ واتّباعَ النّبيِّ، فعليه أن يَتحرَّى سبيلَ الإيمان الصّحيح بعيدًا عنِ الشّركِ والمُشركين، والمقصودُ بهذا التّرتيب بيانُ مبدأ الدّعوةِ، فكونُها على بصيرةٍ، فبيانُ الأتْباعِ، فبيانُ الاحترازِ مِن مُخالَفتِها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

البَصيرةُ والحُجّةُ:

البَصيرةُ؛ هي الحُجّةُ بعلمٍ، وما لا زيغَ فيها

البصيرةُ هي تكاملُ العلمِ والمَعرفةِ بالشَّيءِ، ولهذا لا يجوزُ أن يُسمَّى الباري تعالى بصيرةً؛ إذ لا يتكاملُ علمُ أحدٍ بعظمته وسلطانِه[1]. والحُجّةُ ما يَحتجُّ بها المُناظرُ؛ ليُثبتَ رأيَه، وقد تكونُ الحجّةُ باطلةً، أمّا البصيرةُ فهي الحجّةُ الواضحةُ، والبرهانُ القاطِعُ، ممّا لا بُطلانَ فيه ولا زيغَ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 102.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»